النقد الثقافي أنطونيو غرامشي

يؤمن الفيلسوف الماركسي أنطونيو غرامشي بأن جميع الناس مفكرون، ولكن وظيفة المثقف أو المفكر في المجتمع لا يقوم بها كل الناس. ويرى أن كل طبقة تفرز مثقفيها، الذين يعبرون مباشرة عن مصالح الطبقة التي ينتمون إليها.

إذ أن ما يحدد دور كل ثقافة في المجتمع، هو عن أية مصالح طبقية تعبّر هذه الثقافة فإذا كانت الثقافة محافظة – رجعية، فهي تعكس مصالح الطبقات الرجعية في عصر ما، وتكون عقبة حقيقية في سير تطور المجتمع. وإذا كانت الثقافة تقدمية وثورية، فهي تعبّر عن مصالح الطبقات والفئات الاجتماعية التقدمية والثورية، في هذا العصر التاريخي، وبالتالي فهي تسهم إسهاماً حقيقياً في دفع عجلة تطور وتقدم المجتمع إلى الأمام .لكن قبل الحوض في تحديد غرامشي لمفهوم المثقف سنحاول استعراض بعض التعاريف التي تناولت مفهوم المثقف بالتعريف والتوضيح.

في حقيقة الأمر لا يوجد تعريف محدد للمثقف في أدبيات الفكر عموماً، وعلم الاجتماع خصوصاً، لذا يختلف تعريف المثقف من مفكر إلى آخر، ويرد ذلك لتباين المنطلقات الإيديولوجية التي ينطلقون في نظرتهم لكل ما يحيط بهم. ومن هذه التعاريف تعريف)ريجيس دوبريه (بأن " المثقف هو الشخص الذي يدلو بدلوه في المجال العمومي، ويعلن للملأ آراءه الخاصة أي أنه يحمّل المثقف دوراً فاعلاً في المجتمع مع النخب الواعية في عملية التغيير والبناء .أما) محمد عابد الجابري (فيعرف المثقفين بأنهم " أولئك الذين يعرفون ويتكلمون، يتكلمون ليقولوا ما يعرفون، وبالخصوص ليقوموا بالقيادة والتوجيه في عصر صار فيه الحكم فناً في القول، قبل أن يكون شيئاً آخر. وفي المقابل يعرف) سيمور مارتن ليبست (هذا المفهوم بالعبارات التالية المثقفين بوصفهم من يبدع ويوزع ويمارس الثقافة، أي العالم الرمزي الخاص بالإنسانية والذي يتضمن العلم والفن والدين. أما تعريف) كوزر (فقد حدد المثقفين بوصفهم الأفراد الذين يعنون بالقيم المركزية في المجتمع، أو أنهم الذين يولون اهتمامهم للعالم الرمزي الذي تؤسسه الثقافة، ففي تعريفه لمفهوم المثقف نجده يضع خطاً فاصلاً للتمييز بين الذكاء والعقل، وأنهما سيلعبان دوراً مميزاً في تحديد ماهيات هوية المثقف فالمثقف بالنسبة لكوزر هو رجل العقل، قبل أي شيء آخر إنه ليس رجل الذكاء. فالذكاء هو بمثابة الاهتمام الذرائعي بالعالم الخارجي بالطبيعة. وأما مهمة رجل العقل أنه يهتم بالأفكار التي تدور في حقل الاجتماع الإنساني، وفي مملكة المقدس التي كرس الكهنة والأنبياء أنفسهم لها، وهكذا فإن طبيعة عمل المثقف تبدو غير ثابتة، ومتأرجحة ما بين توظيف كامل في عالم الأفكار، بوصفها قيماً عليها أن تقود الحياة الاجتماعية كلياً. وعرف جان بول سارتر المثقف بناءً على نظرته الوجودية للثقافة والمثقف. بأنه " ذلك الشخص الذي يهتم بأمور لا تعنيه إطلاقاً، ويرى سارتر في تعريف آخر بأن المثقف هو إنسان يتدخل ويدس أنفه فيما لا يعنيه.

فالمثقفون حسب رؤية غرامشي هم الذين يمارسون دوراً حيوياً ومهماً في تكوين وبناء الإيديولوجيات وفي تدعيم الموافقة أو القبول، وكما أن التماسك الاجتماعي وظيفة يقوم بها البناء الاجتماعي فإنه – البناء الاجتماعي – أيضاً وظيفة المثقفين في المجتمع. ويرجع اهتمام غرامشي بمسألة توضيح دور وإسهامات المثقف في المجتمع ككل بسبب فشل الماركسية وتدهورها في المجتمعات الرأسمالية الحديثة. ويعرف غرامشي المثقف – من وجهة نظر السوسيولوجية – رافضاً تصور النشاط الفكري أو الذهني كمسألة أو خاصية متأصلة لطبقة اجتماعية بعينها، فالعمل اليدوي لا يخلو من الفكر، والعمل الذهني لا يخلو من الجهد العضلي، وخاصية إعمال الذهن يشترك فيها كل أفراد المجتمع. ويعبر عن ذلك أن كل الأفراد مثقفون [*]في نظره، ولكن ليس لكل الأفراد وظيفة المثقفين في المجتمع "فكل إنسان مثقف في نظر غرامشي بما أنه يملك رؤية إلى العالم وبما أنه يملك فلسفة خاصة به، وبهذا فهو يساهم في الثقافة السائدة .والمثقف كما يرى غرامشي ليس مجرد أحد عناصر البنية الفوقية، وإنما يجب البحث عنه في مجمل العلاقات الاجتماعية، علاقات الإنتاج.

يميز **غرامشي** بين فئتين متمايزتين من المثقفين: الأولى أطلق عليها المثقف التقليدي، والثانية وصفها بالمثقف العضوي. إن كل جماعة اجتماعية تظهر إلى حيز الوجود في عالم الإنتاج الاقتصادي، حيث تؤدي وظيفتها الجوهرية، فتخلق معها عضوياً شريحة أو أكثر من المثقفين، تمنحها التجانس والوعي بوظيفتها، لا في الميدان الاقتصادي وحده، بل في الميدانين الاجتماعي والسياسي أيضاً. فالمثقف العضوي، هو المثقف المرتبط بطبقة معينة، حيث يقوم بتنظيم وظيفتها الاقتصادية، وهو أيضاً من حَمَلَة وظيفة الهيمنة التي تمارس في المجتمع المدني، بهدف تحقيق قبول وإجماع الطبقات الأخرى، وذلك من خلال عملهم في مختلف الهيئات الثقافية والإعلامية كالمدارس والجامعات، وأجهزة النشر وغيرها. وفي هذا كله تبرز وظيفة العضويين باعتبارهم (أسمنتاً) يربط البنية الفوقية والتحتية للمجتمع، ويستثني غرامشي طبقة الفلاحين من هذه القاعدة، " فجماهير الفلاحين رغم ممارستها لوظيفة أساسية في مجال الإنتاج، إلا أنها لا تفرز بالضرورة مثقفين عضويين خاصين بها "، وإن وجد هؤلاء المثقفين، فإنه في الأغلب يكونون غير منسجمين مع الطبقة التي أفرزتهم، لذلك هم في الجانب الأكبر منهم تقليديون أي مرتبطون بالجماهير الاجتماعية الريفية وبالبرجوازية الصغيرة في المدن (وخاصة منها المراكز الصغرى) التي لم تتطور بعد، ولم يبدأ حركتها النظام الرأسمالي